

إشكالية السّند الحضاري وأثره في الهوية الجزائرية..

الأستاذ: يوسف شعباني - جامعة الجزائر 1 - كلية العلوم الإسلامية

خطة البحث

مقدمة

المدخل: البداية؛ أسباب الانقطاع الحضاري

المبحث الأول: واقع المجتمع الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي

المطلب الأول: الواقع العلمي للمجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي

المطلب الثاني: التواصل الفكري والثقافي والأدبي بين الأجيال قبل الاحتلال

المبحث الثاني: ظاهرة السّند وأثره في الأمة

المطلب الأول: ظاهرة السّند وانفراد أمة الإسلام بها

المطلب الثاني: صورة عن اتصال السّند في المجتمع

المطلب الثالث: أسباب تفجير المواهب والإبداعات في المجتمعات

المطلب الرابع: وعي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفقهها

المبحث الثالث: صور من الآثار العامة لانقطاع الاتصال الحضاري

المطلب الأول: أسباب انكسار عملية التّوريث

المطلب الثاني: الآثار العامة لانقطاع الاتصال الحضاري

أولاً: أثره على العلم الشرعي

ثانياً: أثره على اللغة والقراءة

ثالثاً: الحرف والصناعات... صورة أخرى من انقطاع الحاضر عن تراثه

أ- الانقطاع وأثره على الحرف

ب- الانقطاع وأثره على الطراز العمراني

رابعاً: غياب الوعي الجماعي واندثار سنة التكافل

1- غياب ظاهرة الوقف وأثرها في المجتمع (وهي صورة لها تعلق بالالتزام الديني)

2- التنظيم الاجتماعي وظاهرة غياب التّخَب في المجتمع (وهي صورة لها تعلق

بالتنظيم الاجتماعي)

أ- التّخَب الثقافيّة والعلمية والسياسية

ب- التّخَب الاجتماعية

ج- تحديد التّخَب

* العين في الإسلام

* أثر العين ومكانته

الخاتمة ونتائج البحث

مقدمة

الحمد لله الذي لم يزل عالماً قديراً، حياً قيّوماً، سميعاً بصيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وأكبره تكبيراً، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً، وبعد:

فإنّ المتأمل اليوم للمشهد الثقافي والفكري في بلدنا العزيز ليرى صورة بيئة مقطوعة عن ماضيها، قد جفّ ضرع العلم فيها، وانطفأت جذوة إبداعها، وجفا ذوقها، وذبل جمالها فناً وخلقاً، نعم قد لا نحبّ أن نرى هذه الصورة، ولا أن نقرّها بل قد ندّعي على من صوّرها كما يراها مطابقة لواقعها أنّه إنّما يغلو في حكمه، قد تملّكه التشاؤم فلبس السواد فلا يرى غيره، لكن الملامح التي تدلّ عليها أكثر من تلك التي تنبئ بخلافها، فإذا نظرنا مثلاً إلى واقع المثقّف الجزائري من خلال المؤسسات التي تجمعه فقط للاحظنا صورة من تلك الصّور التي أشرنا إليها، وانظر إن شئت إلى نقاباته واتحاداته؛ تنظيمًا ونشاطًا وأثرًا على مستوى الواقع الثقافي والفكري والأدبي، وتأمّل إن شئت في أبعاد هويّة بعضهم الثقافية، ثمّ اعتبر بمكانة المثقّف والعالم في المجتمع وكيف يُنظرُ إليه.

إنّ سيرك في الشّارع وملاحظتك للافتات الحلاتّ والدّكاكين لغةً وخطاً ورسمًا، ثمّ معاملاتك اليومية خطاباً وجواباً لتدّلك على الانتماء لغةً وهويّة، وعلى الجمال فناً وذوقاً، وعلى الخلق أدباً ومعاملة.

ولعلنا في مقالنا هذا سنشير بشيء من التفصيل إلى هذه الصّور التي إذا استقرّرت دلّت على الشقّة التي بيننا وبين تراثنا، ونبّهت على الانقطاع الذي حصل في سلسلة سندننا الحضاري، الأمر الذي يستدعي منّا جميعاً نخباً ومثقّفين وسياسيين وفنّانين وآباء وأمّهات أن ندرك أنّ الرّقع يزيد اتّساعاً إذا استمرّ تطوّرنا على هذه

الحالة ونحن منقطعون عن تراثنا الثقافي والفني والدّوقي. إنّ التطوّر الذي أشير إليه هنا إنّما هو الانتقال من حالة إلى حالة بغضّ النّظر عن إيجابيته أو سلبيته.

كما أنّ ملاحظة مسألتي الإبداع والتّجديد في المنتج المعرفي الثقافي والفكري، وفي أثره في الواقع كمّا وكيفاً، يدلّنا كذلك على مراوحتنا لمكاننا في السّلم الحضاري، وإن تدرّج فيه البعض استثناء فإنّ واقعنا الإبداعي يبقى حبس المعوقات الإدارية والتنظيمية، منفصلاً عن بيئته الأصلية، إذا أبدع وعبر باللّون والرّيشة قصر في التعبير عن خواطره بلغته الوطنية وعجز عن إيصال رسالته بجمل تامّة مرتّبة الأفكار تنداعى معها المعاني يُيسر وسلاسة.

إنّ هذه المباحث ستحاول الإشارة باقتضاب شديد إلى بعض الملامح التي تميّز واقعنا المعاصر، وتركت الكلام عن رؤيتنا للفنّ والجمال وتقييمنا لهما إلّا ما كان تنبيهاً أو تلميحاً، لأنّني خصّصت بحثاً تناولت فيه "الفنّ والجمال بين تراثنا الأصيل وواقعنا العليل".

كما أغفلت الإشارة إلى مسألتي الإبداع والتّجديد في المنتج المعرفي؛ الثقافي والفكري، وفي أثره في الواقع كمّا وكيفاً، ولم أشأ أن أوغل في تفاصيل ذلك إنّما كان هدي في التّمثيل لا الحصر والاستقراء.

إنّ هذه الصّور التي هي بنت واقعنا ليس لنا إذا أردنا أن نغيّر ملامحها إلّا أن نعرّف العوامل التي أدّت إلى هذه التشوّهات، إذ لا يكفي أن نصف حال واقعنا ونُسرف في جلد ذواتنا ثمّ لا يكون لدينا تصوّر عن أسبابه ولا رؤية عن طريقة إصلاحه.

أسأل الله تعالى أن تكون هذه المباحث نافعة في باهما وأن تساهم في ارتباط أمتنا بثقافتها والتجمل بأصالتها إنّّه على ذلك قدير، والله أعلم وهو يهدي السّبيل.

المدخل: البداية؛ أسباب الانقطاع الحضاري

إنّ أوّل ما يمكن أن أُنَبِّه عليه فيما يبدو لي هو ذلك الانقطاع الذي حصل في سلسلة التّراكم العلمي والفكري والثّقافي والأخلاقي والفنّي والجمالي في مجتمعتنا.

إذ من الملاحظ أنّ الاستعمار الفرنسي سارع منذ أيّامه الأولى في عملية مدروسة مخطّطة إلى قطع كلّ ما يمكن أن يصل الجزائر بماضيها الحضاري؛ على مستوى الهوية لغة ودينًا، وعلى مستوى المجتمع الأهلي تنظيمًا ونظمًا، وعلى مستوى المؤسّسات العلمية والثّقافية؛ مدارس ومعاهد وزوايا وكتاتيب، فقد عمدت السّلطات الاستعمارية ومع مرور الوقت إلى تكريس ظاهرة الأميّة في الأوساط العامّة بالتّضييق على المراكز العلمية كالمساجد والمعاهد وحتّى الكتاتيب التي كانت معدّة للمبادئ الأولى من تعليم للحروف الهجائية والقرآن الكريم رسمًا وحفظًا، وذلك بالاستيلاء على الأوقاف التي كانت مخصّصة لها⁽¹⁾، أو بتجريم تعليم اللّغة العربية كقانون الثّامن مارس 1938م الذي أصدره وزير الدّاخلية الفرنسي "شوتان" والذي ينصّ على أنّ العربية لغة أجنبية بالنّسبة لجميع الجزائريين، ويعتبر تعلّمها محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبّغة العربية⁽²⁾، أو الدّين الإسلاميّ إلّا برخص خاصّة، "ففي 34 ديسمبر من عام: 1904 صدر قانون فرنسي في الجزائر يحظر على أيّ جزائري أن يفتح أو يتولّى إدارة مدرسة عربية أو كتاب لتعليم القرآن الكريم إلّا بترخيص خاص"⁽³⁾.

(1) كقرار وضع اليد على الأوقاف الإسلامية الذي أصدره الجنرال "دي بورمون" في: 8 سبتمبر سنة:

1830م. أنظر: تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ فلسفته وجهوده في التّربية والتّعليم، الشركة

الوطنية للنشر والتّوزيع، الجزائر، بدون تاريخ ولا رقم الطّبعة، ص: 128.

(2) تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، نفس المرجع، ص: 154.

(3) تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، نفس المرجع، ص: 151.

لقد كان الهدف الأساس من وراء الاستيلاء على الأوقاف وتجويم تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم هو القضاء على هوية الأمة الجزائرية وفك ارتباطها بالشرق العربي الإسلامي، قال الشيخ الإمام العربي التبسي رحمه الله تعالى مخاطباً الشعب الجزائري: "وإن أمة لا تختار إمامها الديني، ولا تملك حق التبعد في مساجدها؛ فهي أمة غائبة عن الوجود... أيها المسلمون الجزائريون: إن فرنسا لم تترككم أمة حين نزعت منكم اللغة، واحتلت منكم الإسلام وما فيه..."⁽¹⁾.

وقد أشار الشيخ العربي التبسي في إحدى مقالاته بالشهاب سنة 1926م إلى بعض ما وصل إليه حال الأمة تحت نير الاستعمار الفرنسي فقال مستنقراً تحت عنوان: "الجزائر تصبح بك أيها الجزائري أينما كنت": "أما كفى ما انتهينا إليه من سوء الحال ومغبة المآل؟!، خمس ملايين ونصف ليس لهم صحيفة يومية عربية في عصر المطبوعات، والقرن العشرين، وزهرة الحضارة، والناس في مختلف البقاع قد ذهبوا كل مذهب في نشر الصحف والمجلات بين طبقات شعوبهم... أما يحزن الجزائري أن يرى قطره طوله وعرضه ليس فيه مدرسة واحدة أهلية عربية لتعليم المبادئ الأولية من لغة العرب، ودين الأمة الذي لا سبيل لنا إليه غير اللسان العربي الذي أصبح أثراً بعد عين في أمة من أعرق الأمم، ولولا أن الله حفظ هذا الدين، ولم يكل حفظه إلينا لكنا في عداد المندثرين"⁽²⁾.

(1) البصائر، جريدة تصدر عن جمعية العلماء المسلمين، عدد: 248، بتاريخ: 20 / 11 / 1953م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1427هـ / 2006م، ص: 179.

(2) الشهاب، مجلة صدرت عن جمعية العلماء المسلمين، المجلد: 2، السنة: الثانية، عدد: 34، 1 جويلية، سنة: 1926، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1421هـ / 2001م، ص: 30-

المبحث الأول:

واقع المجتمع الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي

المطلب الأول: الواقع العلمي للمجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي

لقد كان المجتمع الجزائري قبيل دخول الاستعمار الفرنسي مجتمعاً متعلماً ازدهرت فيه المدارس، وانتشر فيه العلم، وانتظمت أجياله في سلسلة يرتبط فيها السابق باللاحق في عملية ثقافية تراكمية ورثت العلم والأدب والفن والذوق مع الحرف والصنائع.

وللتدليل على ما نقول نذكر فيما يلي ما نقله العلامة المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه الموسوعة عن تاريخ الجزائر⁽¹⁾: "وجاء في بعض التقارير عن الثقافة بالجزائر لسنة: 1251هـ / 1836م، أنّه كان بقسنطينة يومئذ سبع مدارس عليا ... و 86 مدرسة ابتدائية، و 16 زاوية، وإلى جانب ذلك خمسة وثلاثون مسجداً كلّها كان يتعلّم بها العلم، ويتراوح عدد التلاميذ بها بين الستّمائة إلى التسعمائة طالب، ... وزاول الدّراسة بها نحو الخمسين وثلاثمائة وألف تلميذ" إهـ.

مع العلم أنّ عدد سكّان الجزائر كلّها لم يكن يتجاوز الثلاثة ملايين نسمة. وفي الجزائر العاصمة وحدها كان هنالك سبع وستون ومائة (167) مؤسسة إسلامية بين مسجد ومعهد وزاوية، منها تسعة ومائة (109) مسجداً وثلاثة عشر مسجداً جامعاً، وانظر إن شئت كم عدد المساجد الآن لترى كم تغيّر حال المجتمع الذي كان فيه للمسجد دورٌ محوريٌّ في بناء المجتمع وتنظيمه.

(1) أنظر: عبد الرحمن الجيلالي؛ تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، الطبعة: الخامسة، سنة:

وقد شهد المؤرّخ الفرنسي "موريس بولارد" (Maurice Poulard) لهذا الواقع العلمي في كتابه: "تعليم الأهالي في الجزائر" حيث يقول: "كان في الجزائر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الميلاديين) مراكز ثقافية باهرة فيها أساتذة متمكّنون في علوم الفلسفة والفقه والأدب والنحو والطبّ والفلك، وكانت المدارس الكثيرة العدد منتشرة في ربوع البلاد، والتعليم ديني ومدني"⁽¹⁾.

المطلب الثاني: التواصل الفكري والثقافي والأدبي بين الأجيال قبل الاحتلال

من خلال ما قدمنا له في المطلب الأوّل من الواقع العلمي الذي كان منتشرًا قبيل دخول الاستعمار الفرنسي لبلادنا يمكننا أن نلاحظ أنّ هذا الكمّ الهائل من المؤسسات العلمية والمكتبات الخاصّة والعامة والأوقاف التي أسبلها أصحابها من أجلها كان يقوم بعملية توريث للعلوم التي كانت سائدة في عصره عن طريق التلقّي المباشر في سلسلة تتربط حلقاتها بحيث تحمل كلّ حلقة منها صفات السابّقة لها شكلاً ومنهجاً، فيجتمع في اللاحقة علم السابّقة وخلقها وآدابها وذوقها.

وهكذا توارثت الأجيال العلم والأدب والخلق والذّوق في تواتر لفظي ومعنويّ، فردي واجتماعي، وإذا تأملنا هذه الظاهرة لأمكننا ملاحظة جملة من الأمور لعلّ أهمّها:

أولاً: التواصل الفكري والثقافي والأدبي بين الأجيال وهو ما نتكلّم عليه في مطلبنا هذا.

ثمّ ثانياً: ظاهرة السند وأثره في الأمة وهو الذي خصّصنا له المبحث الثاني.

أمّا في باب التواصل الفكري والثقافي والأدبي بين الأجيال وإن تفاوتت مستوياتها؛ تجديداً وإبداعاً أو تقليداً ورتابة، فإنّنا نجد في جانب العلم الشرعي

(1) Maurice Poulard l'enseignement pour les indigènes d'Algérie, Alger, 1910. 122-121. نقلاً عن: الرّفاعي، الشيخ العربي التبسي، مرجع سابق، ص: 121-122.

أجيالاً تتوارث بينها العلوم الشرعية حيث ينتسب كلّ جيل إلى سابقه في سلسلة تمتدّ في عمق التاريخ مكتسبة بذلك السند الشرعي والمنهجي، وحيث تنتقل علوم التفسير والحديث والفقه والأصول والعقائد مع علوم الآلة كاللغة والمنطق شفاهاً عن طريق الرواية والإملاء والمناولة والإجازة وغيرها من طرق التّحمّل والأداء التي تعتمد على مناهج متعدّدة كمنهجي التلقّي والتّثبت بالتّقد الداخلي والخارجي سنداً ومتمناً؛ صحّة وضعفاً، أو قبولاً وردّاً.

إنّ هذه البيئة العلمية كان من أهمّ ثمارها ذلك التّوريث الذي شكّل المادّة الخام للعلم والعلماء، وانظر إن شئت في كتب تراجم العلماء وطبقاتهم كيف تجلّد طبقات العلماء ترى يأخذ بعضها عن بعض طبقة طبقة، وخذ لك صورة عن تلك الأسر العريقة في العلم والمجد كيف توارثت العلم أب عن جدّ في سلسلة ذهبية لا تكاد تجد لها خرمًا أو انقطاعاً فهذه أسرة المقرّي بتلمسان التي نبغ منها أحمد بن محمّد⁽¹⁾ صاحب "نفح الطّيب" وعمّه أبو عثمان سعيد بن أحمد عالم تلمسان ومفتيها.

ثمّ أسرة ابن مرزوق التي منها محمّد بن أحمد العجيسي الشّهير بالخطيب والجدّ ثمّ ابن مرزوق الحفيد محمّد بن أحمد بن محمّد⁽²⁾، وابن مرزوق الكفيف محمّد بن

(1) أبو العباس المقرّي التلمساني: المؤرخ الاديب الحافظ؛ أنظر: الزركلي؛ خير الدّين: الأعلام، قاموس تراجم، دار العمل للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة: الرّابعة عشر، سنة: 199م، ج: 1، ص: 237.

وكذا جدّه محمّد؛ قال الزركلي في ترجمته: "المقرّي (... 758 هـ / 1357 م) محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله القرشي التلمساني، الشّهير بالمقرّي، باحث، من الفقهاء الادباء المتصوفين. من علماء المالكية". الزركلي؛ ج: 7، ص: 37.

(2) أنظر: الإعلام، الزركلي، ج: 5، ص: 331. وابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، سنة: 1406 هـ / 1986م، ج: 1، ص: 320.

محمد بن أحمد ولد ابن مرزوق الحفيد السابق، وابن مرزوق السبط محمد بن أحمد بن محمد سبط ابن مرزوق الكفيف⁽¹⁾.

وإذا ألقينا المراسي بطبقة واحدة وبمدينة تلمسان فقط لوجدنا عددا كبيرا من العلماء في الطبقة الواحدة ففي المائة التاسعة نجد أمثال: أبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي التلمساني⁽²⁾؛ صاحب "المعيار المعرب" فقيه المالكية وحامل لوائهم في المائة التاسعة بالمغرب العربي، فقد أخذ العلم بمسقط رأسه تلمسان عن ابن مرزوق وأبي الفضل العقباني وأبي عبد الله الجلاب والمري والمازوني.

كما اجتمع في المائة الثامنة بابني الإمام: (عيسى وعبد الرحمن ابني عبد الله) وتخرج عليهما جلة من علماء الجزائر والمغرب أمثال: الشريف التلمساني والخطيب ابن مرزوق الجد والإمام المقرئ الجد صاحب "نفح الطيب"، وأبو عبد الله اليحصبي.

(1) ومما استظرفه في هذا الباب محمد عبد الحفي الكتاني في فهرس الفهارس والأثبات (ج: 1، ص: 422) عن ذيل ابن غازي على فهرسته قوله رحمه الله تعالى: "ومما يستظرف في هذا الذيل إسناد شفاء القاضي عياض المسلسل بالآباء من طريق سلالة القاضي عياض وذلك أن ابن مرزوق الكفيف يرويها عن أبيه محمد بن مرزوق الحفيد عن أبيه محمد وعمه أبي الطاهر أحمد عن أبيهما الخطيب ابن مرزوق قال حدثني بجميعه الفقيه الأصيل أبو المجد أحمد بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن الفقيه القاضي المحدث الصالح أبي الفضل عياض بن الفقيه المحدث القاضي أبي عبد الله محمد بن الفقيه القاضي أبي الفضل عياض مصنفه قال الخطيب ابن مرزوق هذا طريق شريف نال اللقب المعروف عند المحدثين بالعالِي "إهـ. فانظر كيف كان ينتقل العلم خلال الأسر في مجتمع محافظ على تراثه.

(2) الزركلي، الإعلام، ج: 1، ص: 291.

وقس على هذا في حواضر قسنطينة والمدينة ووهران والجزائر وعناية وبجاية⁽¹⁾ وغيرها، ثم انظر كيف كانت تترين بلدنا بذر العلم في زمن ظل كثير منا يعدّه جدباً إلا من حروب الإمارات وفتن القبائل.

المبحث الثاني: ظاهرة السند وأثره في الأمة

المطلب الأول: ظاهرة السند وانفراد أمة الإسلام بها

إن ظاهرة السند التي انفردت بها الأمة الحمّدية عن غيرها من الأمم كانت تمثّل أهمّ أساس قام عليه حفظ هذا الدين من التّغيير والتّحريف، حيث حفظ القرآن وحفظت السنّة. بمنهجية ليس لها نظير في تاريخ البشرية، ومعهما حفظت أخلاق الأمة وآدابها وذوقها.

فصار للكتاب نسبٌ كما قال الحافظ بن حجر: "سمعت بعض الفضلاء يقول الأسانيد أنساب الكتب"⁽²⁾. إذ أن رواية كتب كالموطأ وصحيح مسلم والبخاري وكتب السنّة، والفقه كالمدوّنة والرّسالة، والعقائد والأصول واللّغة والمنطق وغيرها والتي كانت تُروى وتشرح في المساجد العامّة والمعاهد الخاصّة وتنسب إلى صاحبها بسند يسمعه العام وينقله الخاص. بمنهج غاية في الدقّة والأمانة صدرًا وكتابةً؛ لهو حريٌّ بأن يورث العلم وينشره على أوسع نطاق، وأن يحفظه من التّغيير والتّحريف

(1) أنظر مثلا إلى الحياة الثقافية التي كانت مزدهرة في القرن السادس والسابع للهجرة ببجاية من خلال كتاب: "عنوان الدراية" لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، ومقدمة المحقق: رابح بونار؛ ص: 21 وما بعدها. الغبريني؛ أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون رقم ولا سنة الطبعة.

(2) ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ج: 1، المقدّمة.

ويجليّ الأصيل فيه من الدّخيل، وأن يتّصل بواسطته فهم السّابق ومقصده باللاحق، بل وبألفاظهم بعينها؛ في مجتمع كان الكتاب يحتاج إلى جهد كبير لإخراجه نسخاً، وآخر مضاعف لضبطه ومقابلته على النّسخة الأمّ.

كما كان للدّوق نسبٌ كما هو الحال مع الطّرق الصّوفية التي توارث أتباعها أوراذاً وسلوكاً ونظاماً خاصاً حتّى وإن شان بعضها مظاهراً من الغلوّ أو الانحراف العقدي والتّعدي.

وللجمال نسبٌ كما هو الحال مع الخطّاطين والنّسّاخ والفنّانين والبنّائين وغيرهم ممّن توارثوا حرفهم وفنّهم في دائرة الأسر أحياناً وفي دائرة المدارس العلمية والفنّية أخرى، ففي دائرة الأسر انتقلت روح تذوّق الجمال جيلاً عن جيلٍ عن طريق جماليات الحدائق المنزلية والعامة، وتناسق العمارة وزخرفتها في مساكنهم الخاصّة ومساجدهم وحماماتهم، بل ومكتباتهم بله عن قصورهم في الحواضر.

وللفنّ نسبٌ حيث توارثت الأجيال المدائح الدّينية والموشّحات الأندلسية والشّعـر الملحون، والعزف على العود والنّاي وغيرها.

إنّ تذوّق الجمال الحسّي والمعنوي، السّمعي والبصري، واختيار الكلمات مقاماً ومقالاً، إنّما ينمّي في الفرد والمجتمع عن طريق التّربية الجمالية التي هي عبارة عن تراكم ذوقي؛ معرفي وأخلاقي وسلوكي يتشكّل عبر أزمنة وأجيال، وفي رحاب بيئة خاصّة متميّزة داخل دوائر متداخلة منها الأسرة والمدرسة والمسجد والحيّ والمدينة والحضارة، ولكلّ دائرة منها دورٌ في تشكيل هذا التّراكم الذّوقي؛ المعرفي والأخلاقي عبر التّربية والتّعليم والمعاملة وغيرها...

إنّ هذا التّواصل والتسلسل الذي يشكّل هذا التّراكم المعرفي والأخلاقي هو الذي نصطلح عليه بالإسناد وهو الذي عمل الاستعمار الفرنسي على قطعه وفكّ حلقاته، كخيط السّبحة ينقطع فتتفرّق حبّاتها فليس لها من جامع.

المطلب الثّاني: صورة عن اتّصال السّند في المجتمع

تكلمنا في المطلب السّابق عن السّند وأثر اتّصاله في الحفاظ على هويّة الأُمّة واجتمع وأشرنا إلى أنّ صورة واقعنا اليوم هي أثرٌ من آثار انقطاع السّلسلة التي كانت تصلنا بماضيها الحضاري، وسنتقل من خلال هذا المطلب إلى صورة المجتمع والأسرة التي حافظت على اتّصالها المعنوي والروحي بل والماديّ عبر اتّصال السّند فيها من خلال إطلالةٍ على المجتمعات العربية في المشرق لنقارن بين واقعين انفصلا في مرحلة تاريخية في مساريهما ثقافيا وفكريا وحضاريا بسبب جائحة الاستعمار.

إذا أغفلنا الكلام عن التّواصل في جانب العلوم الشرّعية الذي يعتبر الشّرق العربي مهده وأسه والذي أشرنا إليه؛ فإنّنا نجد أيضاً في الجانب الفكري مدارس فكرية متعدّدة بغضّ النظر عن أصالتها تورّث أفكارها وإنّ أعمل التّطور فيها بالتّغيير منهجاً أو نظراً، أو امتدّت رقعة أتباعها أو انحسرت في روادٍ قلائل، ومنها المدرسة النّصّية والعقلية والصّوفية والقومية وكلّ بأطيافها واتّجاهاتها...، وغيرها ممّا يمكن أن يشكّل بأصوله وفروعه ومناهجه مدرسة فكرية متميّزة عن غيرها.

وكذا في الجانب الفنّي الجمالي؛ انتقلت فنون الرّسم والنّحت بأنواعه والعمارة والخطّ وغيرها من يد إلى يد على مستوى العائلات والأسر حيث التّقاليد الحرفية، أو على مستوى المجتمع حيث الاتّجاه العام السّائد بالحفاظ على كلّ ما يرمز إلى الموروث الفنّي والحضاري والاعتزاز به، نعم قد يرجع ذلك إلى بعض الاتّجاهات

الفكرية الرائجة فيها كالفكر القومي العربي إلا أنّها ليست سوى عامل من العوامل التي صنعت هذا الاتجاه.

ويمكن أن نلاحظ عوامل أخرى سنذكرها في موضعها تجعل من المواطن العادي يتذوّق الفنّ والجمال ويظهر ذلك في أوضح صورته في الاستمتاع بالصّوت الشّجيّ، وتذوّق الشّعور والأدب، والتّفنّن في الخطّ والزّخرفة، بل نرى هذا الذّوق حتّى في اختيار الكلمات في المعاملات الفردية عند البيع والشّراء وركوب الحافلة ومعاملة الشّيخ والأستاذ والأدب معهما ومع الوالدين وهكذا، طبعا دون ملاحظة مدى الصّدق والإخلاص في ذلك فتلك أوجه أخرى لا تعلّق لها بموضوعنا.

وإذا قمنا بمقارنة هذه الصّورة بالأولى لتبيّن لنا الفرق بينهما جليّا، والكلام هنا طبعا عن ذلك الاتّصال الذي لا يزال قائما عن طريق التّوريث الأسري والاجتماعي فيها وغيابه أو قل انقطاعه عندنا.

إنّ الانقطاع ل ذو آثار جليّة على التّراكم الحضاري بأبعاده الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، والسّبب في ذلك عائد كما أشار إليه ابن خلدون في مقدّمته إلى أنّ "العوائد إنّما ترسخ بكثرة التّكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال"¹.

على أنّه يجب التّنبية على أنّ القياس في مثل هذه الدّراسات يكون على الحواضر لا على البوادي، وعلى العموم لا على الخصوص. ولكلّ قاعدة استثناء والشّاذ يحفظ ولا يقاس عليه.

(1) ابن خلدون، المقدّمة، تحقيق: حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، طبعة سنة: 1991م، ص: 255.

المطلب الثالث: أسباب تفجير المواهب والإبداعات في المجتمعات

نواصل في مبحثنا هذا كلامنا الذي بدأناه حول المجتمعات التي حافظت على اتصالها المعنوي والروحي بشكلٍ من الأشكال التنظيمية أو الروحية والذي تكلّمنا من خلاله عن الانسياب الذي عرفه الفكر والفنّ والجمال ولننظر إلى نتائج اتصال السند الحضاري وأثره في تفجير المواهب والإبداع.

لعلّ أهمّ ما يمكن ملاحظته هو توفّر كثيرٍ من الوسائل التي تساهم بشكلٍ أو آخر في عملية بناء المواهب وصقلها وتفجير الإبداعات، وسأذكر هنا أهمّ هذه الوسائل:

1- تعدّد المؤسسات التعليمية ذات الرّصيد التاريخي، والخبرة المنهجية، كالمساجد والجامعات العريقة كالأزهر والزيتونة والقرويين وغيرها.

2- انتشار النوادي الثقافية العامة منها والخاصة، ووجود ثقافة الحوار عند المثقّفين حتّى أصبحت بيوت كثير منهم ملتقى لرواد الفكر والفنّ والأدب، بل عدّت بعض المقاهي في بعض الأحيان نوادي يلتقي فيها المثقّفون والمفكّرون، تناقش فيها المسائل في السياسة والفكر والاجتماع والأخلاق والفنّ... ويمكن أن نلحق بهذه النوادي الجمعيات والاتحادات المهنية والفنية والأدبية وغيرها؛ التي تلعب دوراً كبيراً في نشر ودعم الفكر والثقافة عن طريق تشجيع النشر وعقد الندوات الفكرية والأمسيات الشعرية والمحاضرات العلمية والمعارض الفنية وما يستتبع ذلك من النقد والحوار الذي يفجّر الإبداع وينمّيه.

3- انتشار المكتبات العامة والخاصة التابعة إمّا للدولة أو إلى الجمعيات والنوادي التي لا يخلو الكثير منها من مكتبة تجمع ما ندر وما جدّ.

كما تمثّل المكتبات التي يمتلكها رجال الفكر والأدب بل والسياسة دوراً بارزاً في هاته المجتمعات؛ ذلك أنّ الكثير منهم سخّر حياته في جمع ما تفرّق منها في العالم

الإسلامي مثل نواذر المخطوطات أو الكتب التي نفذت طبعاتها، وحتى تلك التي لم تر التور بعد، وقد تحوّل الكثير منها إلى مكتبات وطنية عامّة على غرار ما حدث في مصر وسورية.

4- توجه مجموعة من رؤوس الأموال إلى تكوين مؤسّسات ودور للنشر وإنشاء للمطابع تبعاً لها؛ كلّ هذا ساهم في:
أ — تشجيع الكتابة والتأليف عبر توفّر وسائل النشر.

ب — ظهور مجموعة كبيرة من الصّحف التي تعالج المشاكل السياسيّة والفكرية والاجتماعية ساهمت في تكوين مجموعة من الكتّاب والصّحافيين الذين برزوا لتوفّر المنابر، وتعدّد مساحات النشر.

وبعملية حسابية صغيرة يمكن أن نخلص إلى ذلك: فباختبار أنّ كلّ جريدة — أو مجموعة منها — تحتاج إلى مراسلين ونقّاد ومحلّين في السياسة والاقتصاد والاجتماع وأدباء وفنّانين، فلا يكاد جانبٌ منها إلّا وينبع منه نابغة فيبدع فنّاً أو أدباً أو فكراً، ويثمر ذلك كلّهُ أجيالاً رائدة في بابها، مبدعة في فنّها، بالإضافة إلى ما يكون من خلال اختلاف توجهاتها من تعارض وتدافع وتلاقح، إذ يثمر تطوّرًا جدليًا في الفكر أو على الأقلّ يخطو به خطوات رائدة في ميدان البناء والحضارة.

المطلب الرابع: وعي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفقهها

لقد تنبّه الإمام ابن باديس رحمه الله تعالى ومعه جمعية العلماء المسلمين إلى أهميّة الصحافة ودور النشر في التراكم المعرفي وأثرها في الوعي الوطني والإسلامي ولذلك بذل قصارى جهده من أجل إصدار صحافة عربية تكون لسان الأُمّة الناطق باسمها، تذود عن حياضها وتحمي مقوماتها، فكانت تصدر تبعاً وبأسماء مختلفة نظراً للحظر الاستدماري الذي كان مظهرًا من مظاهر الوقوف في كلّ ما يمكن أن يشير إلى

ثوابت الأمة وهويتها أو يحاول أن يبعثها أو يذكر الناس بها. فكانت البصائر والسنة والصراط والشهاب والمنتقد⁽¹⁾...

وقد لا بجانب الصواب إذا قلنا بأن هذه الصحافة أدت دورها على أكمل وجه رغم تأخر ظهورها بحيث فجرت الطاقات الكامنة في المجتمع الجزائري، فأبدع بلسان عربي مبين نثرًا وشعرًا، وأنتج أدبًا وطنيًا أحيا روحًا أيقظت الضمائر الحية، وعلت بالهمم لترتفع راية العلم ويصطف تحت لوائها أئمة ومدرّسوا الجمعية وخطباؤها وشعراؤها.

كما يجب أن لا ننسى الفضل الكبير الذي كان لبعض الشخصيات العلمية والفكرية والإصلاحية حيث كان لها أثرٌ آخر طيّب مستقلّ في هذا الجانب الهامّ من أمثال القطب محمد بن يوسف بن عيسى أطفيش⁽²⁾ الذي كان من رواد النهضة الإصلاحية على مستوى المجتمع الإباضي خاصّة والجزائري عامّة، إذ عمل على بعث الحركة العلمية والنشاط الثقافي فاجتهد بعد خمول وجدّد بعد تقليد.

(1) والمطلع على هذه الجرائد يلحظ ذلك الكمّ الهائل من المقالات والبحوث التي أثرت الساحة السياسية والأدبية الجزائرية، وكيف أنّها فجّرت الطّاقات، وكشفت عن المواهب من أصحاب الأقلام السيّالة والفكر الناقد؛ أثّرت فكرًا وأدبًا وسياسة وفلسفة...

(2) محمد بن يوسف بن عيسى أطفيش، الفقيه المجتهد، المفسّر، الأديب؛ من أكابر علماء الجزائر، ومن رواد النهضة الإصلاحية بها، ألّف في التفسير والأصول والفقه واللغة، وجمع أرجوزات في اللغة والقراءات، وشروح لأصول الإباضية وفقهها. توفي رحمه الله تعالى في بني يسقن حيث ولد سنة: 1914م/ 1332هـ. انظر: نويهض؛ عادل، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة: الثالثة، سنة: 1403هـ/ 1983م. ص: 19-21.

المبحث الثالث:

صورّ من الآثار العامّة لانقطاع الاتّصال الحضاري

المطلب الأوّل: أسباب انكسار عملية التّوريث

لعلّ أهمّ ما يمكن أن نخلص إليه ممّا رأيناه هو أنّ سبب هذا الضّعف الذي سرى في كيان مجتمعتنا إنّما مرّده إلى الانكسار الذي حدث في عملية التّراكم الثّقافي بما تحمله الكلمة من ذوقٍ وخلقٍ وفنٍّ وجمالٍ وأدبٍ وفكرٍ.

ولعلّنا إذا جئنا إلى سبب هذا الانكسار لأرجعناه إلى الاستعمار الفرنسي حصرياً، ولا شكّ أنّ هذا يحمل الكثير من الحقيقة كما رأينا سابقاً عند كلامنا عن موقفه من ثوابت الأُمّة؛ ديناً ولغةً، ونظمها تعليمياً ووقفاً...، ولكنّه ليس كلّ الحقيقة، فقد لعبت السّياسة بعد الاستقلال دوراً هامّاً فيما يبدو لي في هذا الانكسار، ثمّ هناك أيضاً عامل آخر قد نغفل عنه حيث يمكن أن نلاحظ أنّ كثيراً ممّن تخرّجوا من مدارس جمعية العلماء المسلمين امتصّت الإدارة والتّعليم الرّسمي جهودهم وأخذت الوجهة التي أريد لها، وضعف تبعاً لذلك جهدهم في توريث العلم والحفاظ على هويّة المجتمع بالتّوجيه والإرشاد.

إنّ السّياسة الثّقافية والتّعليمية التي سادت غداة الاستقلال كانت تدور في فلك الفكر الاشتراكي الذي كان سائداً في المجتمعات الحديثة الاستقلال حيث كانت موضحة البلدان التي تريد تحرير نفسها من ربة الاستعمار الغربي الرّأسمالي، ولذلك كان مسؤولونا يرون أنّ الاختيار الاشتراكي لا رجعة فيه وأنّ كلّ ما يمكن أن يعارض هذا الخيار من ثقافة أو فكر يجب أن يتصدّى له. وعدّ بذلك العمل على إحياء الثّقافة الإسلامية عملاً رجعيّاً يجب أن يُحارب إعلامياً وثقافياً بل وأمنياً...

إنّ هذه البيئة التي أصبحت فيه عناصر الهوية مشكّكٌ فيها وتحارب على غرار اللغة العربية التي أصبحت غريبةً في دارها مهجورةً من أبنائها؛ هي بيئةٌ مجتمعٍ مهدّدٍ ثقافيّاً بالعناصر الدّخيلة من لغة وعقيدة ونظم اجتماعية.

المطلب الثّاني: الآثار العامّة لانقطاع الاتّصال الحضاري أولاً: أثره على العلم الشرعي

نخلص فيما أشرنا إليه من أهميّة الاتّصال في رسوخ العلم والآداب والأذواق في المجتمع من خلال مقارنتنا هذه إلى أنّ مجتمعنا لما انقطعت فيه سلسلة العلم (الشرعي منه على الخصوص) وضُعفت قدرة الأسرة والمجتمع على توريث الأبناء والأفراد معاني الذّوق والجمال والأخلاق حسّاً ومعنى، سرّت مظاهر البداوة إلى أَسْرنا ومجتمعنا، فغاب النّظام عن مؤسّساتنا، وخَفَت ضوؤه أهمّ نُظُمنا الاجتماعية فتواری دور الوقف والزكّاة والمسجد في مدننا.

فلم يعد للوقف أثرٌ على مستوى مؤسّساتنا التّعليمية والاجتماعية إذ انكششت ونهبت أوقاف الفقراء والمساكين واليتامى وطلبة العلم في معظم أنحاء البلاد⁽¹⁾. ولم يعد للزكّاة ذلك الدّور الذي كانت تقوم به حيث تفرّقت أموالها فذهب أثرها تبعاً لذلك.

كما مال المسجد عن رسالته في توريث العلم وتعميمه وتحقيقه، فاقتصر على إقامة الصلوات الخمسة، وبعض الدّروس القليلة التي ينعدم فيها العلم بشقيه الموضوعي والمنهجي، مع تجرّده عن ماضيه وانفصاله عن واقعه فلا سند شرعي ولا منهجي، وثمرته كما نرى اليوم قلة في العلم والعلماء، وغلوٌ وتطرّفٌ في الالتزام،

(1) هذا التّهب بدأ في العهد الاستعماري واستمرّ غداة الاستقلال عن طريق سياسة التّأميم واستمرّ الحال إلى آخر القرن حيث صدر قانون استعادة الأوقاف والذي يعدّ من الجهود المشكورة التي بذلتها الدّولة مؤخراً.

وَتَصَدَّرُ تَبَعاً لِدَٰلِكَ الْجَهْلَةُ لِلْإِمَامَةِ وَالْفَتْوَىٰ، وَتَقْلَدُ وَسَامَ الدَّعْوَةِ مِنْ لَا يَفْقَهُ مَقَاصِدَ الْإِسْلَامِ وَلَا يَعْرِفُ مَرَاتِبَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَحِيطُ عِلْماً بِمَفَاصِلِ وَاقِعِهِ ضَعْفًا وَقُوَّةً، فَكَانَتِ الْفِتْنَةُ الَّتِي هَدَمَتْ مَقَاصِدَ الشَّرْعِ مِنْ حِفْظِ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْعَرَضِ وَالْدِّينِ، فَأُزْهِقَتْ نَفُوسٌ بَرِيئَةٌ وَاسْتُيْسِجَتْ أَمْوَالٌ وَانْتَهَكَتْ أَعْرَاضٌ بِأَدْنَى الشُّبْهِ عَلَى أَسَاسٍ مُخَالَفٍ لِمَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَفًا وَخَلْفًا، أَصْلًا وَفِرْعًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

ولعلّ ظاهرة التقليد لكلّ ما يأتينا من المشرق في باب الفقه إنّما مردّها إلى انقطاع السند العلمي المذهبي، حيث كان الفقه في المغرب الإسلامي حكراً على مذهب الإمام مالك، ولم يختلط إلا لما بالمشهد الحنفي في العهد التركي؛ الذي لم يكن له كبير أثر على المستوى الشعبي العام^(١). إنّ مساجد الجزائر وزواياها ومراكزها العلمية لما انقطع فيها تدريس الكتب الفقهية المعتمدة في المذهب المالكي، وطال أمد الانقطاع عنها، جاء من ابتداء بتدريس كتب فقهية قائمة على أصول الإمام أحمد، وأخذت تنتشر رسائل ومطويات وتسجيلات مرئية وصوتية تحوي فتاوى وأجوبة فقهية وفق المذهب الحنبلي في عامّة مساجد الجزائر وربوعها، وذلك يعود في رأيي لسببين أساسيين اثنين:

الأوّل: أنّ الطالب في الماضي كان لا ينتقل إلى المشرق لطلب العلم إلّا وهو متقنٌ لمذهبه، مطّلعٌ على أصوله، هذا إن لم يكن قد صار فقيها أصوليا، ورحلته إنّما تكون لترسيخ علومه، والاطّلاع على المذاهب الأخرى، ونستطيع أن نطلّع على هذا من خلال ما كتبه بعضهم في مذكراته عن رحلاته⁽²⁾. أمّا اليوم فيخرج

(1) إلا ما كان في بعض الحواضر كالمدينة أو تلمسان أو غيرهما.

(2) أنظر في ذلك مثلاً إلي ما كتبه ابن العربي في العواصم من القواصم عن رحلته إلى المشرق ومناظراته وآرائه، وكذلك ما ذكره أهل التراجم مما كان من مناظرات علماء المغرب العربي مع المشاركة من خلال ما ترجم عنهم في رحلاتهم.

الطالب من بلده وهو شبه أمّي، فيدرس في المشرق وفق مناهجهم العلمية القائمة على مذاهب فقهية أخرى؛ حنبلية بالجزيرة وشافعية حنفية بالشّام ومصر، ولذلك لا يعود إلى بلده إلّا وهو مطّلع على المذهب الذي تعلّم به، وأخذ فروعه وأصوله، فيفتي بما تفقّه وعلم.

الثاني: ضعف المرجعية الفقهية والعلمية بصفة عامّة في البلد، ولعلّ ذلك يعود إلى عدم ثقة العامّة في المؤسسات الرّسمية التي تمثّلها إن وجدت.

ثانياً: أثره على اللغة والقراءة

إنّ دراسة التّغيير السّريع الذي يحدث في مصطلحاتنا التي نداولها يومياً في لقاءاتنا ومعاملاتنا وبُعد تأثّر اللهجة المحليّة بالمصطلح الدّخيل، ومدى تقبّل المجتمع له وتفاعله معه، ليدلّ على مدى ضّعف البناء اللّغوي في لهجتنا وعلى اضمحلال أسباب الانتماء والأصالة.

والإنكار هنا ليس من باب تغيير اللّهجات وتطوّر اللّغات نماء أو اندثاراً لأنّ هذا يعدّ سنّة من سنن الله في الاجتماع الإنساني؛ إنّما الإنكار هنا لتلك الفوضى التي لا تقرّها سنن الرّيادة والقوّة والمنعة، بل سنن الضّعف والانتكاسة والتّبعيّة، خاصّة عند ضعف مقوّمات الهوية: لغة وأخلاقاً وانتماء.

ومن الظّواهر التي تشدّ الانتباه أيضاً التّراجع الكبير الذي يحدث على مستوى القراءة المتخصّصة العلمية والأدبية أو العامّة، حيث يظلّ الكتاب على رفوف المكتبات لا يجد له قارئ ولا مشترى، واستبدلت محلات بيع الكتب بمطاعم ومحلات لبيع أشرطة الغناء، وحوانيت الهواتف المحمولة وخدمات الهاتف وغيرها ممّا صار المجتمع مدمناً عليه ومنصرفاً إليه.

وأما المكتبات العامة فهي في حكم التّوادر، إذ أنّ أغلب حواضر الولايات لا تجد فيها مكتبة لائقة بما بله أنّ تجد في البلديات مكتبة إلاّ ما ندر والشاذّ يحفظ ولا يقاس عليه.

إنّ التاريخ سجّل لنا أنّه قبيل دخول الاستعمار الفرنسي كان في الجامع الكبير وحده أربعين ألف مجلّد، كما حوت مكتبة آل الشّيخ فكّون بقسنطينة الخاصّة ما يزيد على ألفين وخمسمائة مجلّد⁽¹⁾.

ثقافة هدم مقوّمات الأمّة... لماذا تستهدف اللّغة العربيّة؟!

يكثّر الكلام من حين لآخر عن لغتنا ولهجتنا المتداولة في البيت والسّارع، بل وحتىّ بين المثقّفين والجامعيين منّا، وكثيرا ما كنت أستمع إلى بعض المثقّفين يتكلّم في الإذاعة الوطنية أو التّلفاز، أو أقرأ لبعض ما يكتبونه في الجرائد وأتعجّب ممّا يتوهّمونه حول موضوع اللّغة واللهجة وما ينبغي أن تكون عليه في وطننا الحبيب.

ذلك أنّ كثيرًا منهم يرى أنّ اللّغة التي يجب أن تسود في بلدنا إنّما هي اللّغة العامية، ويسمّونها اللّغة الجزائرية، ويعدّون ذلك خاصية من خصائص المجتمع الجزائري، وهو تطوّر طبيعي شهدته اللّغة الجزائرية التي تكوّنت من مزيج من اللّغات التي سادت المجتمع في مراحل مختلفة من تاريخه، فأصبحت تقوم على ثلاث لغات أساسية: أمازيغية وعربية وفرنسية، يريدون بذلك إقحام الفرنسية لتكون جزءً من التّراث الجزائري اللّغوي، ويعتقدون أنّه يجب أن نعتبر ذلك غنيمة حرب تزيد في رصيد اللّغة الوطنية، وتنمّي ثروتها، وتساهم في تطويرها.

وقد يتعلّل الكثير ممّن يدعو إلى مثل هذا الاتّجاه بأسباب علمية نفسية واجتماعية ولسانية، كأنّ يدّعي بعضهم أنّ هذا تقتضيه طبيعة تطوّر اللّغات واللهجات، وأنّه

(1) أنظر: عبد الرحمن الجيلالي؛ تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج:3، ص: 538.

يراعي التيسير على الناس من التعقيدات التي تنتج عن طبيعة اللغة العربية الفصيحة، والتي يرى الكثير من هؤلاء أنها لا تصلح لمثل مجتمعنا المتأثر باللغات الأوروبية بحكم الحوار والمكث تحت هيمنتها لما يزيد عن قرن.

كما يتعلّل بعضهم الآخر باختلاف العقلية الجزائرية المغربية عن العقلية الشرقية العربية من حيث أنّ اللغة وعاءٌ للفكر والثقافة.

إنّ هذا الاتجاه الذي يسعى بكلّ ما أوتي من جهد فكري ومادّي لإقحام اللغة الفرنسية كمكوّن أساسي في منظومتنا اللغوية إنّما يهدف في حقيقته إلى هدم عنصر من عناصر الهوية الجزائرية؛ وهو اللغة العربية.

إنّ ما سعت إليه إدارة الاستعمار الفرنسية للقضاء على اللغة العربية وفشلت في تحقيقه هو عين ما يسعى إليه هؤلاء الذين يدّعون محاولة حماية عناصر الهوية الجزائرية وتطويرها.

فاعتماد العاميّة كلغة أساسية ليس بعدها إلّا التمكن للغة الفرنسية، وهذا هو عين الذي يحدث مع اللغة الأمازيغية في بعض جهات الوطن، حيث يدعو بعضهم إلى الأمازيغية ويعادي عليها كلّ من يناقشه في مسألة تثبيتها كلغة رسمية للجزائر، ثمّ تجده لا يتكلّم بها إلّا وقد شوّوها بعدّة ألفاظ فرنسية، ولا يخلطها بالعربية تعصّباً، وتجده لا يكتب إلّا بالفرنسية، ولا يضع لافتة لمكتبه أو متجره بلغته الأمازيغية بل يزيّنها بالفرنسية، بل حتّى وإن كتبها فإنّه لا يكتبها إلّا بأحرف لاتينية، ثمّ هو في بيته ومكتبه وفي الجامعة والإدارة لا يتعامل إلّا بالفرنسية.

هذا وإن كنت ممّن يعتقد بأنّ اللغة الأمازيغية يجب أن تكون فعلاً لغة رسمية للدولة، وأن يترك الناس أحراراً في تعلّمها وتعليمها والتخاطب بها، وأن توفّر كلّ الوسائل لذلك، لأنّها بحقّ تمثّل عنصراً أساسياً من عناصر الهوية الوطنية، وهي آية

من آيات الله في خلقه، وقد كتب علماء المسلمين العجم من غير العرب بلغاتهم ونبغوا بها، كما أسهموا باللغة العربية ولم يمنعوا من دراسة لغاتهم الأصلية مع العربية ولهذا لم تنقرض لغاتهم ومازالت إلى اليوم، كالتركية والفارسية والهندية وغيرها، بخلاف بعض اللغات التي انقرضت بفعل الاستعمار الهمجي كلغة الهنود الحمر في أمريكا وغيرها.

إنّ هذه الدّعوى التي يتعصّب إليها بعض الذين يدعون إليها في الجزائر ليست بدعاً من القول، ولا هي تعبّر عن اتّجاه طبيعي بريء من الأهداف الخفية، بل هو اتّجاهٌ قديم جديدٌ بلغنا صدهاء من المشرق العربي، حيث تبنّاه مجموعة من علمانيي لبنان الذين أرادوا أن تكون اللهجة اللبنانية هي اللغة الرسميّة في لبنان، كما ظهر اتّجاهٌ آخر في مصر يدعو إلى القبطية، وآخر بسوريا يعلي راية السريانية وهكذا. وفي كلّ ذلك إن فتّشت عن مبرراته وجدتها تنطق بلسان واحد خصوصيات البلد والمجتمع.

إنّ الغرب في دراساته الشرقيّة التي تناولت اللهجات المحليّة ببلدان العالم الإسلامي والتي أسّس لها أقساماً خاصّة بها؛ لم يكن هدفه علمياً بحثاً، بل له أهداف أساسية أخرى لعلّ أهمّها: إحيائها وإن قلّ الناطقون بها أو هجرها أهلها لأسباب لغوية واجتماعية وحتى اقتصادية أو سياسية أو دينية. وذلك بغية تفتيت وحدة الأمة العربيّة الإسلاميّة إلى أقليات عرقية تارة، وأخرى لغوية، وثالثة طائفية، وهكذا فكلّما كانت أسباب الاختلاف اللّغوي والعربي والديني أكثر كلّما كان تفريق وتفتيت المجتمع العربي الإسلامي أكثر يسراً، وأبلغ أثراً، وأدمى جرحاً.

إنّنا اليوم نخدّر من هذا الاتّجاه الخطير الذي بدأ يستشري في منابرنا الإعلامية، من قنوات وإذاعات رسمية تابعة للدولة الجزائرية تخاطب المجتمع الجزائري بلغة هجينة لا هي جزائرية ولا هي فرنسية، تفقد الجزائري لغته الأصيلة، وتجعل منه

مواطننا بلا لغة، فيكون لقمة سائغة تشكّل لغته بيد غيره دون أن يعي ذلك ودون أن يلتفت إلى خطورها عليه وعلى من يأتي بعده والله المستعان.

ثالثاً: الحرف والصنائع... صورة أخرى من انقطاع الحاضر عن تراثه

لعلّي أشرت في مباحث سابقة إلى الانقطاع الحاصل بين الأجيال في مجتمعنا في باب توارث العلم ومثّلت له بانقطاع سنده، كما أشرت إلى غياب بعض النظم والسّنن الاجتماعية التي كانت تسيّر المجتمع وتحفظ له هويّته وقيمه الأخلاقية.

وفي هذه النقطة سأتكلم عن الحرف والصنائع وأثر الانقطاع الذي حصل في سلسلة السند الحضاري على استمرارها وتطورها.

أ- الانقطاع وأثره على الحرف

فالحرف والصنائع التي كانت موجودة في مجتمعنا والتي أتقنها أجدادنا وأبدعوا فيها فنّاً وجمالاً ترك بصماته على مساجد الجزائر وقصورها وقصباتها؛ اختفت من واقع بيوتنا وشوارعنا ومساجدنا اليوم إلّا من واحات متناثرة في وسط قاحل من الفنّ والجمال والتراث الجزائري.

وسواءً كان ذلك نحتاً على الخشب وغيره، أو نقشاً عليه وعلى الرّخام أو الجبس، أو كتابة بالخط المغربي الشّهير، أو كان صناعةً جلدية أو نسجاً للألبسة من البرانس أو الزّارابي وغيرها. كلّ ذلك صار نادراً حتّى لا نقول منعماً، ولم تعد هناك تلك العائلات العريقة في الحرف والصنائع التقليدية التي تحتاج إلى ذوق وفنّ لا يمكن اكتسابه إلّا عن طريق عملية تراكمية من خلال أجيال تتوارثه عبر الأسر أو فئات خاصّة من المجتمع.

ولعلّ الواحد ممّا إذا أراد أن يقوم بزخرفة بناء يريد أن يكون نموذجاً يمثّل صورة عن حضارة وثقافة بلده، واحتاج في ذلك إلى نحات على الجصّ، أو خطاطٍ يجيد

الخطّ المغربي، فإنّه سيبدل جهداً كبيراً للحصول عليه إن وجد، وإلاّ فأغلب أحواله أن يُشارَ عليه بأن يستجلب من المغرب الشّقيق من يقوم له بهذا العمل.

أمّا إذا أراد أن يقوم بإصلاح كتاب له عزيزٍ عليه قديم، أو تجليده تجليداً فنيّاً، فدونه كدّ السّؤال والبحث المضني الذي لا يثمر في الغالب إلاّ كدراً وتألماً على ما صارت إليه حرفنا وصناعاتنا التّقليدية.

ومثّل ذلك يُقال عن العطارين أصحاب العطور المصنوعة بأدوات تقليدية ومواد خام طبيعية، والتّجارين الذين يصنعون التّحف الفنية والأثاث المنحوتة يدويّاً وبأشكال وفنون مميّزة للفنّ والتّحت الجزائري البربري أو العربي الإسلامي، وكذا الصّبّاغين الذين يصبغون الأقمشة أو الألبسة، والصّائغين الذين كانوا يجيدون صناعة الحلّي الذهبيّة والفضيّة، بل والصّناعات المتعلّقة بمختلف الأدوات والنّسائج والأسلحة.

ولقد بلغت الحرف والصّنائع في الجزائر درجة متقدّمة جعلتهم يحقّقون اكتفاء ذاتياً في مصنوعات ذات جودة وجمالية ودقّة متناهية عرف قدرها غوستاف لوبان الذي قال في كتابه حضارة العرب وهو في معرض كلامه عن الصّناعات التّقليدية عند البربر سكّان الجزائر والمغرب العربي: (فهم) "ذووا استعداد صناعي يكفي لصنع ما يحتاجون إليه من مختلف الأدوات والنّسائج والأسلحة والحلي... ورأيت بين ما يصنعونه من الحلّي ما لا يقلّ دقّة عمّا نراه في مخازن أكثر الصّاغة البارسيين أناقه"⁽¹⁾.

كما أنّ مؤسّسات الجزائر الثّقافية اليوم إذا أرادت أن ترمّم معلماً من المعالم التّاريخية تضطرّ في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بالخبرات الأجنبيّة؛ العربية وغير

(1) غوستاف لوبان، حضارة العرب، طبعة: القاهرة، سنة: 1367هـ / 1948م، ص: 305.

العربية لعدم وجود اليد الفنية الجزائرية المختصة وأصحاب الحرف التقليدية التي قد تحتاجه لمثل هذه المناسبات، خاصة فيما تعلّق منها بالأعمال الفنية رسماً وخطاً، أو نقشاً ونحتاً.

وفي أحيان أخرى قد تُستبدل بعض أجزاء هذه المعالم عمداً أو جهلاً بقيمتها بأجزاء صناعية حديثة لم تُصنع موافقة لما يتطلبه الموقع فتصبح هذه الأجزاء المركبة نشازاً عن الأجزاء الأخرى للمعلم، من حيث القيمة الجمالية ابتداءً، ثم من حيث القيمة الفنية انتهاءً.

ب- الانقطاع وأثره على الطراز المعماري

وإذا ألقينا نظرة سريعة على مساجدنا الحديثة وعلى هندستها وزخارفها وطريقة بنائها، ثم قارناها مع مساجد الجزائر القديمة للاحظنا تلك الفروق الواضحة:

أولاً من حيث الشكل وطريقة البناء،

وثانياً من حيث الزخرفة والفن المعماري السائد.

أمّا من حيث الشكل فإنّك ستجد أنّ مساجد اليوم لا تكاد تجد جامعاً يجمع بينها، أو طرازاً معمارياً سائداً يجعلك تقول هذا طراز جزائري إسلامي، أو أندلسي، أو مغربي، بل يختار الرائي في تحديده للطراز المعماري الذي يقابله ولا يكاد يستطيع تصنيفه لعدم التزامه بنمط هندسي معيّن، فتجد تنافراً وعدم توافق بين المئذنة والطراز المعماري لباقي المسجد أو العكس، أو أنّك تجد حجم القبة لا يتناسب وتفاصيل باقي أجزاء المسجد، وهكذا.

ثمّ هناك ما يتعلّق بزخارف المسجد التي تجد أنّها لا تصل في أغلب الأحيان إلى مستوى ما كانت عليه مساجدنا من التحف الفنية النادرة، والأشكال الهندسية المتناسقة، والخطوط الجميلة.

وهذا يعود في رأيي إلى عدم الالتفات إلى مثل هذه الأمور الفنية التي لها تعلّق بتراث المجتمع عند أهمّ بتصميم المسجد.

ثمّ هناك أيضاً غياب لثقافة الحفاظ على الموروث الحضاري والجمالي للمجتمع، بسبب انقطاع العوامل المساعدة لها ولعلّ عامل اندثار الحرف والصناعات التقليدية من أهمّها.

ولعليّ أختم قولي في هذا الباب بالتأكيد على أنّه على المجتمع الجزائري بمؤسّساته الثقافية ومثقفيه أن يولي هذا الجانب من الأهمية ما يستحقّه حتّى لا نسير في طريق قطع كلّ ما يصلنا بماضينا وتراثنا الثقافي والفكري والعملية.

رابعاً: غياب الوعي الجماعي واندثار سنة التكافل

إنّ من أهمّ صور الانقطاع الحاصل في سلسلة السند الحضاري في المجتمع الجزائري هو غياب الوعي الجماعي لدى الفرد، واندثار سنة التكافل بين الأفراد، ويمكن أن نشير إلى ظاهرتين في هذا الباب واحدة لها تعلّق بالالتزام الديني، وأخرى لها تعلّق بالتنظيم الاجتماعي.

1- غياب ظاهرة الوقف وأثرها في المجتمع (وهي صورة لها تعلّق بالالتزام الديني)

أمّا الظاهرة الأولى فتتمثّل في تخلّي الأفراد والهيئات عن سنة الوقف؛ التي هي عبارة عن حبس للعين أو الأصل وإسبال للمنفعة، والوقف سنة نبوية تتيح للفرد تقديم خدمة عامّة لمجتمعه تستمر باستمرار أصل الوقف، وتسهم في تنمية المجتمع في جميع مناحي الحياة فيه؛ علمياً وصحياً واقتصادياً وثقافياً، وذلك من خلال المشروع الخيري الذي يتبرّع به الفرد للمجتمع الإنساني بل وتجاوزه في بعض أوجهه وميادينه ليوفّر الرعاية للحيوانات المريضة والمسنّة.

ولقد كان الوقف منتشرًا في أوساط المجتمع الجزائري قبل دخول الاستعمار الفرنسي يؤدّي دوره الخيري في جميع مناحي الحياة.

وفي وصف هذه الظاهرة داخل المجتمع الجزائري قال المؤرخ الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:

"ولقد تفتّن القوم في أنواع الوقف حتّى لا يكاد يخطر ببالك خاطرٌ في الوقف إلّا وتجد من سبقك إليه ممّا أوشكت أن تكون معه معظم بلاد الإسلام موقوفة"⁽¹⁾.

يشير إلى أنّه مسّ كلّ ما يتعلّق بالإنسان كحفر الآبار للشرب والرّي، وإنشاء المدارس والمكتبات للعلم، والمساجد والجوامع للعبادة، ووقف الأراضي والدّور والخوانيت والحمّامات للفقراء وأبناء السبيل وطلبة العلم والمجاهدين في سبيل الله والحجّاج لبيت الله الحرام، وغيرها من سبل الخير.

وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد ورد في بعض الوثائق الوقفية أنّه كان بالعاصمة وحدها ما يبلغ سبع وستون ومائة مؤسّسة إسلامية، منها تسعة ومائة (109) مسجداً، وثلاثة عشر (13) مسجداً جامعاً، وثلاث عشر زاوية (13)⁽²⁾. مع ما يتبعها من أوقافٍ خاصّة بها.

فإذا قارنا ما نحن عليه اليوم من الاهتمام بهذه السّنة لتعجّبنا من انصراف النّاس عنها، وغفلتهم عن أثرها في تنمية المجتمع واستقراره وتطوّره العلمي والاقتصادي.

فقد قلّ اليوم من يوقّف من ماله لطلبة العلم إذ لا نكاد نجد من يهتم بهذه الفئة، خاصّة لمن تفرّغوا لحفظ القرآن منهم، بل وما كان من أوقافهم فقد أقيمت على أراضيه بنايات ومشاريع صناعية عامّة وخاصّة وصرف ريعه في غير ما أوقف له،

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج: 3، ص: 422.

(2) أنظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، نفس المصدر السابق: ج: 3، ص: 443

وهذا من أكبر التعدي على حقوق الناس حتّى وإن كان أصحابه قد انتقلوا إلى بارئهم.

وما أقلّ ما نسمع عمّن يوقف من ماله وأرضه لبناء المساجد والجماعات. ولهذا قلّت المساجد في وطننا، فيكفي أن تسير في شوارع العاصمة لتلاحظ ذلك النقص الكبير في المساجد مقارنة مع ما تجده في غيرها من العواصم العربية والإسلامية، فأنت لا تكاد تسمع آذانا حتّى لتشعر بأنك في مدينة غريبة، وقد تعب في البحث عن مسجد إذا أدركك وقت الصلّاة ولم تكن في المكان القريب من المسجد لطول المسافة بين المسجد والآخر.

أمّا سبيل الوقف للفقراء والمساكين فلا أثر لها البتّة، فلا تكاد تعثر أو تسمع مؤسّسة وقفية خاصّة بهم. ويكفي أن تتبّع المنابر الإعلامية من إذاعات وجرائد ومجالات لتتقن من عدم وجود أيّ أثر لإعلانات تتعلّق بهيئة أو مؤسّسة وقفية خاصّة أو عامّة سواء كان الإعلان خاصّاً بالنشأة أو الدّعوة إلى المشاركة فيها بالتبرّع.

إنّ هذه الملاحظة لا تعني أنّ الوقف في الجزائر انعدم بالكلية وإذا زعمنا هذا فقد جانبنا الصّواب إذ أنّ الخير لا ينعدم في هذه الأمّة ولكّنه أصبح في حكم النّادر إذا قيس بما كان عليه وإذا قارناه بما هي عليه المجتمعات الإسلامية الأخرى في العالم الإسلامي. إلّا أنّه من العدل أن ننّه إلى أنّ هناك بعض الجهود الرّسمية في هذا الباب تتعلّق أساساً بمحاولة إعادة استرجاع الأملاك الوقفية وجردها واستغلالها وهو جهد مشكور إلّا أنّه يبقى جهداً إدارياً لا يرقى إلى وعي اجتماعي وحسّ فردي يتطوّر إلى سلوك عملي خيري.

إنّ الوعي بأهميّة الوقف واستثماره في تنمية المجتمع وإصلاحه هو أثرٌ لعملية ثقافية تراكمية تنتج عن توريث فكري وسلوكي عن طريق الأسرة والمجتمع

ومؤسّساته التعليمية ومناهجه التربوية، وقد انقطع هذا التواصل بين الأجيال في الجزائر فكان أثره بالغاً على مستوى الفرد ثقافة وأخلاقاً وذوقاً، وعلى مستوى المجتمع الأهلي في تقاليده ونظمه ومؤسّساته.

وإذا أردنا أن نعيد لمجتمعنا قيمه الأخلاقية ونظمه الاجتماعية القائمة على التكافل والتآزر والتعاون فيجب علينا أن نعيد النظر في سياستنا الثقافية والتعليمية القائمة على تقليد المجتمعات الغربية، فنعيد ربطها بقيمها الثقافية الأصيلة، ونحيي نظمها الاجتماعية العريقة، وتقاليدها الموروثة، وأعرافها المبتوثة، والتي لا تتعارض مع شريعتنا الإسلامية، فنفتن لها، ونطوّرهما بما يتلاءم مع مقتضيات العصر من عمل مؤسّسي وتنظيم إداري.

2- التنظيم الاجتماعي وظاهرة غياب النّخب في المجتمع (وهي صورة لها تعلّق بالتنظيم الاجتماعي⁽¹⁾)

الظاهرة الثانية التي أريد التنبيه عليها تتمثل ابتداء في الانقطاع الذي حدث في كثير من حلقات نظامنا الاجتماعي، ولعلّ الظاهرة التي تلفت الانتباه في ذلك تتعلّق بغياب النّخب الرائدة الممثّلة لأطراف المجتمع وفئاته؛ سياسياً وثقافياً واقتصادياً ومهنيّاً إلى غير ذلك من مناحي الحياة.

أ- النّخب الثقافية والعلمية والسياسية

إنّ المراقبَ لمجموعة العوامل التي تساهم في توجيه المجتمع والتأثير فيه ليلاحظ ضعفاً شديداً في تأثير النّخب المثقّمة في توجيه المجتمع وتحريكه، وسواء كان هذا غياباً أم تغيباً فإنّ النتيجة واحدة؛ وهي أنّ المجتمع يسير عشوائياً وفق مجموعة من العوامل تتوافق مع بنيته النفسية: من عصبية وانفعال واندفاع وحماس شديد، ومع

(1) وهي لا تخلو طبعاً في تفاصيلها من الالتزام الديني.

تكويناته الاجتماعية: القبلية والجهوية والعرقية، أو تكويناته السياسية: إسلامية ووطنية وعلمانية.

هذا وإن كانت بعض هذه المكونات تتأثر بتوجيه ثقافي فكري إيديولوجي قد يحتاج إلى توجيه من نخب تتبّن نظرياته وتعمل على صبغ المجتمع بها، إلا أن هذا التأثير يبقى ضعيفاً، مرتبطاً في كثير من الأحيان بتأثر خارجي له تعلق بنعرة عرقية، أو لغوية، أو بتأثير نظام سياسي ذو اختيار فكري معين.

ولعلّ الفتنة التي عاشتها الجزائر في التسعينات والغلو الذي شهده الفكر التغييري ليدلّ على ضآلة تأثير النخب العلمية، حتّى لا نقول انعدامها، فقد غاب العلماء عن توجيه الشباب توجيهاً عقدياً وفقهياً صحيحاً، وتصدّر للقيادة الدينية من لا فقه له، ومن شاب فكره الكثير من التشوّهات التي أثمرت تعدياً صارخاً على الدماء والأعراض والأموال، وخراباً في الاقتصاد والعمران، وهدراً للجهود والطاقات. مع ما نتج عنه من الآثار النفسية والاجتماعية التي لم تندمل جراحها بعد.

وهذا لا يعني انعدام أهل العلم من الفكر الصحيح في بلدنا، إلا أن تأثيرهم كان منعدماً وذلك لأسباب كثيرة لعلّ أهمها:

- العزلة والتهميش التي كان يعاني منها والتي لم يستطع الخروج منها.
- ثمّ هناك أيضاً السلبية التي يعاني منها بعضهم في التعامل مع قضايا الساعة. وتأثرهم بانعدام الثقة في النظام الحاكم الذي يدفع في بعض الأحيان إلى التحرّز من موافقته في بعض تفاصيل ما يذهب إليه خوفاً من موافقته والانحياز إليه.
- ثمّ هناك أيضاً غموضٌ اكتنف الواقع أدّى ببعض من تصدّي للقيادة السياسية إلى الكثير من الأخطاء على مستوى الاجتهاد الفقهي السياسي.

- كما أنّ النّخب السّياسية التي أدّارت هذه الفتنة لم تكن في المستوى من حيث التأثير على توجيه المجتمع فأمعن بعضها في الانزواء، وترك مكانه فارغاً يرتاده من لا دراية له ولا فقه.

- وآثر آخرون السّلامة على الصّدق، وفرّ آخرون إلى خارج البلد يعارضون عن طريق الفاكس ويألّبون الرّأي العام العالمي على بلدهم، ويجرّم بعضهم مجتمعه ويصفه بالتخلّف والبداءة مقابل جائزة علمية يكافؤ عليها، أو بإقامة شرعية بواسطة اللجوء السّياسي وغيرها ممّا يكون مكسباً خاصاً يقابل موقفه إزاء وطنه وأبناء بلده.

ب- النّخب الاجتماعية

تكلمت فيما سبق عن ضعف تأثير النّخب بمختلف أطرافها على توجيه المجتمع، وعدّدت بعض أسباب هذا الضّعف، ومثّلت لذلك بالنّخب العلمية والثقافية والسّياسية، وسأتكلّم في هذه النّقطة عن النّخب الاجتماعية.

أمّا النّخب الاجتماعية والتي سأتناول الكلام عنها بالتّفصيل فقد أصبح وجودها أثراً بعد عين، إذ غابت مجالس الأعيان عن مدننا وانحصر وجودها في القرى والمدائر النّائية التي لا زالت تسير عن طريق مجالس خاصّة.

كما أنّنا لم نعد نسمع عن أعيان التّجار، ونقباء آل البيت، وعمدائ العائلات الكبيرة والشّريفة، وغاب عن أذهان النّاس وأديّاتهم عدول الرّجال وحكماؤهم الذين كانت النّاس ترجع إليهم في خصوماتها ونزاعاتها.

إنّ شريعتنا الإسلامية التي بها ندين، وإليها نحتكم؛ جعلت لأهل العدالة والحكمة والمشهود لهم بالخلق والديانة من الرّجال مكانة خاصّة في المجتمع الإسلامي، حيث قضت بأن تكون محلّ قبول في شهادتها، وإجماع على قولها، واحتكام إلى رأيها.

ولذا كان في مجتمعنا مجالس للإصلاح بين الناس يؤمّها علماء وعقلاء وأعيان؛ تفضّ بها الخصومات، ويحتكم إليها في المنازعات، فتسهم في استقرار المجتمع وحفظه من الفتن والقلائل.

وكانت هيئات الوقف تقوم على تقييد الوقف وتنظيمه ليحقّق مقصده من نفع من حبس له، والوصول إلى مستحقّيه، والمحافظة عليه من غصب أو تحويل إلى غير ما وضع له.

ج- حقيقة النخبة

ولعلّ القارئ قد يستدرك على قولي بأنّ مدّنا اليوم لا تخلو من الأعيان وكبراء العائلات والأغنياء، والجواب على ذلك يكون بملاحظة أمرين هامّين وهما لا ينفكّان عمّا أشرت إليه من قبل:

- أمّا الأمر الأوّل فله علاقة بالعين والمقصود منها.

- وأمّا الثّاني فله علاقة بآثر العين ومكانته عند كلّ أطياف المجتمع.

وتفصيل ذلك أنّ العين متعلّق بالريادة في العلم أو الديانة أو الحسب أو النّسب أو الأخلاق أو كمال العقل والحكمة. وليس له تعلّق منحصر في غنى أو رياسة أو نفوذ أو سطوة، خاصّة إذا كان صاحبه ليس من أهل الديانة والمروعة والأخلاق.

نعم قد يكون من واقعنا أن يصبح الوضع شريفاً، والفاجر عدلاً، وسارقاً أموال الناس وأكل الرّبا غنياً، وهذا انقلابٌ في موازين النّاس وقيمهم، وهو راجعٌ في تقديره إلى اختلال المفاهيم عند النّاس، وضّعف الوزاع الدّيني، وانقطاع مجتمعنا عن ثقافته وتقاليده وأعرافه.

أثر العين ومكانته

أما من ناحية أثر الأعيان في توجيه المجتمع وإصلاحه وتنظيمه فإنه أصبح ضعيفاً لدرجة أنه كاد ينعدم، وعلة ذلك في تقديري تعود إلى أمرين أساسيين:

- الأول: يتمثل في تغييب دورهم وتمييزهم من طرف النظم الحاكمة التي تخشى من كل ما يمكن أن ينظم المجتمع الأهلي أو يؤطره أو يوجهه، وذلك خشية أن يفلت زمام التوجيه من يدها ليصبح في نظرها في أيد غير آمنة قد تعبت بأمن البلد وتوجه سياسته الداخلية.

- الثاني: الأثر الخارجي الذي يتمثل في تقليد المجتمعات الغربية في نظمها الاجتماعية، والتي استبدلت هذه النظم بمؤسسات وجمعيات ونقابات وأحزاب تمثل هذه النخب وتؤطرها.

وليس المقصود أن تقلد الغرب في العمل المؤسسي والمجتمع الأهلي بعيداً أو مثابة بل أصبح أمراً لا مناص منه لكل مجتمع أراد أن يتفياً في ظلال المدنية والتطور، وهو أمر لا يتناقض مع عقيدتنا وشريعتنا، ذلك لأنه يمثل أرقى ما وصلت إليه المجتمعات من تطور في نظمها الاجتماعية والإدارية، فهو حصيلة تراكم جهد عقلي إنساني ورثه الغرب عن الحضارات التي سبقتة ومنها الحضارة الإسلامية، إنما كان له فضل التطوير والتجويد. ولكن المراد هو أن لا ننساق وراء كل ما تحمله هذه النظم والآليات من تفاصيل قد تكون مؤثرة على بنيتنا الاجتماعية ونسقتها العام.

ولعل التفكك الأسري هو من أهم نتائج بعض تفاصيله التي لا نريد أن تنخر تماسك مجتمعا.

ثم هناك ظاهرة غياب الوازع الديني ومعيار الالتزام بالأخلاق والفضائل كعامل مرجح في قيادة الناس وتوجيههم، وتفضيل بعضهم على بعض. ذلك أن المرجح اليوم في التقدم والتأخير ارتبط بعوامل أخرى نذكر منها على وجه الخصوص:

- أولاً: مدى الارتباط بالنظام السياسي وولائه.

- ثانياً: مدى تحقيق المعني لمصالح الجهة المرشحة سواء كانت اقتصادية أم إدارية.

- ثالثاً: إيديولوجية المرشح وثقافته والتي لها دورٌ كبير في كثير من المواقع الحساسة في المجتمع.

هذا ما أدّى إلى ضعف العوامل الأخرى التي لها علاقة بإرثنا الحضاري، وقيمنا العربية الإسلامية، حيث لا تأثير لعلماء الشريعة، ولا لغيرهم من أهل الفكر والثقافة، وباستقراء عابر لفصائنا الإعلامي يمكن أن نحدّد معالم النّخب التي توجّه المجتمع وتؤثّر فيه، وبعبارة أدقّ ما يراود لنا أن نراه كذلك. والحمد لله ربّ العالمين.

نتائج البحث

يمكننا في خاتمة هذا البحث أن نخلص إلى مجموعة من النتائج لعل أبرزها:

1- لقد كان المجتمع الجزائري قبيل دخول الاستعمار الفرنسي مجتمعا متعلما ازدهرت فيه المدارس، وانتشر فيه العلم، وانتظمت أجياله في سلسلة يرتبط فيها السابق باللاحق في عملية ثقافية تراكمية ورثت العلم والأدب والفن والذوق مع الحرف والصنائع.

2- نبه البحث إلى أن هذا التواصل والتسلسل الذي يشكل هذا التراكم المعرفي والأخلاقي والذوقي هو السند الذي اختصت به هذه الأمة الإسلامية وبه حفظت دينها وأخلاقها، وهو الذي عمل الاستعمار الفرنسي على قطعه وفكّ حلقاته، كخيط السبحة ينقطع فتتفرق حبّاتها فليس لها من جامع.

3- ومن خلال أخذ صورة عن اتصال السند في المجتمع العربي الإسلامي خلصنا إلى أهمية الاتصال الحضاري في رسوخ العلوم والآداب والفنون والأذواق في المجتمعات والأمصار. وكيف ساعد ذلك على تجدد الطاقات واكتشاف المواهب وإطلاق الإبداع.

4- لقد كان من فقه جمعية العلماء المسلمين انتباهها لأهمية التعليم والصّحافة في إحياء ما انقطع من مقومات الهوية الجزائرية من دين ولغة وثقافة، فانبرت لذلك لا تألو على شيء حتّى وفقّها الله تعالى إلى تحقيق ما سعت إليه من خلال مدارسها وصحافتها التي لم ينل وأد الاستعمار لها من همتها وإصرارها فكانت تصدر تباعاً وبأسماء مختلفة.

5- كما خلصنا إلى أنّ مجتمعا لما انقطعت فيه سلسلة العلم (الشّرعي منه على الخصوص) وضعّت قدرة الأسرة والمجتمع على توريث الأبناء والأفراد معاني الذّوق والجمال والأخلاق حسّاً ومعنى، سرّت مظاهر البداوة إلى أسرنا ومجتمعنا، فغاب النّظام عن مؤسّساتنا، وخفّت ضوء أهمّ نُظُمنا الاجتماعية فتوارى دور الوقف والزكّاة والمسجد في مدننا.

6- وعلّل البحث هذا الضّعف الذي سرى في كيان مجتمعنا إلى الانكسار الذي حدث في عملية التراكم الثّقافي بما تحمله الكلمة من ذوق وخلق وفنّ وجمال وأدب وفكر في العهد الاستعماري، ثمّ ما كان من التّوجه العام الذي اختطه المجتمع الجزائري لنفسه غداة الاستقلال.

7- إنّ الانقطاع الذي حصل في تواصل الأجيال في الجزائر على المستوى العلمي والديني والنّظم الاجتماعية كان أثره بالغاً على مستوى الفرد ثقافة وأخلاقاً وذوقاً، وعلى مستوى المجتمع الأهلي في تقاليده ونظمه ومؤسّساته.

8- من خلال محاولة استقرار الآثار العامّة لانقطاع السّند الحضاري أعطى البحث صوراً عن الانقطاع الذي حصل في العلوم، وأثره على اللّغة العربية التي استهدفت، وكيف استبيحت منظومتنا اللّغوية، كما أظهر لنا واقع الحرف والصنائع في بلدنا الحبيب أثر الانقطاع الذي حصل في سندا الحضاري وكيف أصبحنا عالّة على غيرنا عند حاجتنا إلى اليد الفنّية المتخصّصة في تصوير أو بناء أو ترميم، وتبيّن لنا من خلال مقارنة سريعة بين النّمط المعماري السائد وما يتّصل به من فنون الخطّ والنّحت والتّجسيص مع ما كان سائداً في الجزائر قبيل الاستعمار الفرنسي من العمران وما يلحق بها من فنون أنّ هناك فروقا واضحة:

أولاً: من حيث الشّكل وطريقة البناء؛ حيث اختفى النمط العمراني الذي كان سائداً في جزائر ما قبل الاحتلال، وحلَّ محلُّه النمط الغربي، بل لا يستطيع المراقب تصنيف ما يقابله من الأبنية لعدم التزامه بنمط معيّن.

ثانياً: من حيث الزّخرفة والفنّ المعماري السائد؛ حيث غاب الفنّ الإسلامي المغربي أو حتّى الأندلسي من منشآتنا: نقشاً أو نحتاً أو خطأ.

9- إنّ من أهمّ صور الانقطاع الحاصل في سلسلة السند الحضاري في المجتمع الجزائري هو غياب الوعي الجماعي لدى الفرد، واندثار سنة التكافل بين الأفراد، وقد أشار البحث إلى ظاهرتين في هذا الباب:

- واحدة لها تعلقٌ بالالتزام الدّيني، حيث قلّ الوعي بأهميّة الوقف وغفل أهلها عن أثره في تنمية المجتمع واستقراره وتطوّره العلمي والاقتصادي.

- وأخرى لها تعلقٌ بالتنظيم الاجتماعي. حيث رصد البحث غياب النّخب الرائدة الممثّلة لأطراف المجتمع وفئاته؛ سياسياً وثقافياً واقتصادياً ومهنيّاً.

- وقد لاحظ البحثُ ضعفاً شديداً في تأثير النّخب المثقّفة في توجيه المجتمع وتحريكه، وسواء كان هذا غياباً أم تغييراً فإنّ النتيجة واحدة؛ وهي أنّ المجتمع يسير عشوائياً وفق مجموعة من العوامل تتوافق مع بنيته النّفسية: من عصبية وانفعال واندفاع وحماس شديد، ومع تكويناته الاجتماعية: القبلية والجهوية والعرقية، أو تكويناته السّياسية: إسلامية ووطنية وعلمانية.

- أمّا النّخب الاجتماعية فقد أصبح وجودها أثراً بعد عين، إذ غابت مجالس الأعيان عن مدننا وانحصر وجودها في القرى والمداشر النائية التي لا زالت تسير عن طريق مجالس خاصّة. كما أنّنا لم نعد نسمع عن أعيان التّجار، ونقباء آل البيت،

وعمداء العائلات الكبيرة والشريفة، وغاب عن أذهان الناس وأدبياتهم عدول الرجال وحكماؤهم الذين كانت الناس ترجع إليهم في خصوماتها ونزاعاتها.

- كما حدّد البحث مصطلح العين في تراثنا فبيّن أنّه متعلّق بالريادة في العلم أو الديانة أو الحسب أو النسب أو الأخلاق أو كمال العقل والحكمة. وليس له تعلّق منحصر في غنى أو رياسة أو نفوذ أو سطوة، خاصّة إذا كان صاحبه ليس من أهل الديانة والمروءة والأخلاق. والله أعلم.

المراجع والمصادر

- 1- الجيلالي؛ عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، الطبعة: الخامسة، سنة: 1403هـ / 1983م.
- 2- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، سنة: 1406 هـ / 1986م.
- 3- ابن حجر؛ أحمد بن علي، فتح الباري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية.
- 4- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، طبعة سنة: 1991م.
- 5- الزركلي؛ خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، دار العمل للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة: الرابعة عشر، سنة: 199م.
- 6- الغبريني؛ أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون رقم ولا سنة الطبعة.
- 7- فضلاء؛ محمد الطاهر، أعلام الجزائر، محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى، مكتبة البعث، قسنطينة، سنة: 1387هـ / 1967م.
- 8- الكتاني؛ محمد عبد الحي، فهرس الفهارس والأثبات.
- 9- لوبان، غوستاف، حضارة العرب، طبعة: القاهرة، سنة: 1367هـ / 1948م، ص: 305.

المجلّات

- 1- البصائر، جريدة صدرت عن جمعية العلماء المسلمين، عدد: 248، بتاريخ: 20 / 11 / 1953 م ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1427 هـ / 2006 م.
- 2- الشهاب، جريدة صدرت عن جمعية العلماء المسلمين، المجلد: 2، السّنة: الثّانية، عدد: 34، 1 جويلية، سنة: 1926 م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطّبعة: الأولى، سنة: 1421 هـ / 2001 م.